المؤتمر الدولي التاسع للغة العربية

دبي – الإمارات العربية المتحدة 2023 –م

محور : الدراسات اللسانية الدولية واللغة العربية .

ملخص البحث الموسوم :

(أَثَرُ عَوْلَمَةِ اللِّسانِيَّاتِ في تَفْكِيك النَّظَرِيَّةِ اللُّغَويَّةِ العَرَبيةِ)

The impact of the globalization of linguistics in dismantling))

((the ancient Arabic linguistic theory

• د . سلمان عباس عبد

abbas abed Pr.salman

dr.salman@cois.uobaghdad.edu.iq

• م .د : لقاء عادل حسين

العراق – جامعة بغداد – كلية العلوم الإسلامية

2023م

1444هـ

الملخص :

تَمُرُّ اللُّغةُ العربيةُ في العَصرِ الحَديثِ بأَزماتٍ فكرية وعلمية وثقافية ، وَمَرَدُّ هذه الأزماتِ بسببِ ما يُسمى ب(العولمة) التي أضحتْ خَطَرًا يُهَدِدُ الشعوبَ العربية بطمسِ هوياتِهم الثقافية والمعرفية ، وَتَتَخِذُ من تفتيتِ اللغة العربية مَدْخَلًا مُهِمًا ؛ لِأَنَّ اللغةَ هو الوِعاءُ الثقافي للأُمَّةِ ، وبطمسِ اللغةِ تنهارُ المنظومة العَقْدِية والقِيَمِية والثقافية ، وَقَد اتخذتِ العوْلَمَةُ من (اللسانيات) المَدْخَل الأكبر في مَسْخِ النظرية اللغوية العربية ، بِحُجَجٍ بَرَّاقةٍ منها أَنَّ الانفتاحُ الحضاري على العالم ، يبدأُ من تَبَني (اللسانيات الغربية) ؛ لِكَوْنِها تُمَثِلُ

الكلياتِ العامة للغة العالمية ، وَلَما كانتِ اللسانياتُ ظَهَرَتْ في أَحْضانِ الثَّقافةِ الغَربية ، لِتأسيسِ مَنظومَتِهِم اللغوية ، وَقَد استَعانَوا بمَناهِجَ متعدِدَة ، تتناسبُ مع لغاتِهِم التي مَرَّتْ بأَطوارٍ مُخْتَلِفة ، بسببِ غيابِ نَصّ لُغوي ثابت ، على مدار الحِقبِ الزَّمنية .

وتَمَّ إدخالُ اللسانياتِ الغربية إلى السَّاحةِ اللغوية العربية تحتَ عَباءةِ الاستعمارِ للبلادِ العربية ، من خلالِ التأثر بالثقافة الغربية ، فبدأَتِ اللسانياتُ تشهَدُ تَمَدُدًا أُفُقيًّا وعمودِيًّا في الفكر اللغوي العربي الحديث .

المشكلة : تَمَّ تصديرُ اللسانيات للعالم العربي لغرضِ ضربِ اللغة العربية عن طريقِ سَلخِ العرب عن لغَتِهِم ، وقطعِ الصلةِ بينهم وبين تراثنا العربي .

الإجابة : سأُحَدِدُ **المعايير الآتية** :

- اللسانيات لا يمكنُ أَن تكونَ بديلًا للنظرية اللغوية العربية .
- النظرية اللغوية العربية مُكْتَمِلةٌ في نظامِها الداخلي والمعرفي ، وليس فيها نَقصٌ .
- النظرية اللغوية العربية تقومُ على النَّصِ القُرآني مِمَّا جَعلَ لها ضوابِطَ يصعبُ تغييرُها أو تبديلُها .
- يمكنُ للسانيات أن تكونَ منهجًا في إعادةِ قراءة النظرية اللغوية العربية ، لغرضِ الكشفِ عن أسرارِها الداخلية ، وخصائصها الخارجية من دون المساسِ بأصولِها الثابتة .

المنهج : سأتَّخِذُ من المنهج الوصفي التحفيري آليةً في عرض القضايا العلمية .

الكلمات الافتتاحية : العولمة – اللسانيات – تفكيك النظرية اللغوية العربية .

المبحث الأول : العَوْلَمة .

إنَّ العَولمة ظاهرة انتشرتْ انتشارًا يفوق التَّصورَ في أرجاء المعمورة ، ربمَّا لكونِها تنادي بمسألتينِ هما : الثقافة والعالمية ، مِمَّا جعلها مقبولةً من البشرية نوعًا ما .

لا نجدُ في معاجمنا العربية تعريفًا لمصطلح (العولمة) ، ولا في المعاجم المعاصرة ، كالمعجم الوسيط .

ميز محمد عابد الجابري بين (العولمة) ، و(العالمية) بقوله : " العولمةُ شيء ، والعالميةُ شيءٌ آخر ، العالمية تفتحُ على العالم ، على الثقافات الأخرى ، واحتفاظ بالاختلاف الثقافي ، وبالخلاف الإيديولوجي ، أما العولمةُ فهي نفيٌ للآخر ، وإحلال للاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي ، العولمة ... إرادة للهيمنة ، وبالتالي قمعٌ وإقصاءٌ للخصوصية ، أمَّا العالميةُ ... فهي طموحٌ إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي ، العولمة احتواء للعالم ، والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني "().

فالعولمة مصطلح حديث ظهر في خمسينيات القرن الماضي على الكرة الأرضية ، ثم تطور هذا المصطلحُ تطورًا ملحوظًا ، واستُعملَ من المثقفين الغرب لغرض هيمنتها الثقافية ، والسياسية ، والاقتصادية على العالم الثالث عامةً ، وعلى العالم العربي والاسلامية بخاصة ().

إذ ساهمت العولمة في الانفجار المعرفي حيث تزايدتِ العلومُ في جميع نواحيها رأسيًا وأُفقيًّا نتيجةً للتقدم العلمي ، مِمَّا أَدَّى بدورهِ إلى ازدياد موضوعات الدراسة في المادة الواحدة ، كما تفرعتِ الموضوعات ، وتشعبتْ مجالاتُها ، وظهرتْ علومٌ جديدة ()، فاللغة العربية تحتلُ مكانةً خاصَّةً عند أَهلِها تفوقُ اللغاتِ

الأخرى ، وذلك لأنها لغة القرآن الكريم الذي حرص جميعُ المسلمينَ على بقاءها حيَّةً مألوفةً عند الجميع ().

وقد تعرضتِ العربيةُ إلى جملةِ تحدياتٍ في عصر العولمة ، فقد ظهرت الدعوةُ إلى العامية ، وذلك لأنَّ العامية تعملُ على تحطيمِ وتفكيك اللغة الفصحى ، فقد جنَدتِ الحملاتُ الاستعمارية الدعوة إلى العامية لاغتيال الفصحى ، بحجةِ أنَّها السبيلُ إلى مجاراة ركبِ الحضارةِ ()، مع الإشارة إلى حقيقةٍ ناصعة هي : " إنَّ العاميات العربية هي في هذا الواقع بعيدة عن الفصحى ، وليستْ قريبة منها ، وهذا الابتعادُ نتيجةً طبيعة القرون الطويلة من الحكم الأجنبي الذي دفع الفصحى إلى الانزواء ... إذ نمت هذه العاميات في مناخِ مُشبعٍ بالرَّطْنات الأعجمية ، فزاد ذلك في انحرافاتها الصوتية ، واختلافاتها الصرفية ، وألفاظها الدخيلة ، وتراكيبها البعيدة عن سنن العرب "().

فمزاحمة العامية للفصحى لا يعني إلغائُها ، أو زوالُها ، ولكن التباين العريض بين الفصحى والعامية في مستوى التركيب النَّحوي في القواعد والإعراب والصرف قد يؤثر سلبًا على عملية التعليم ، وفي الاستيعاب لحقائق العربية ().

فاللغة قبل العولمة كانت لغة الدين ، واللغة الأولى ، واللغة الأم ، ولغة التراث والحضارة ، ولها قواعد منضبطة مسبوكة ، وأصبحت اللغة بعد العولمة لغة ثانية ، ولغة تفكك وانحطاط ، ولغة عامية ، ولا تتجاوب مع تكنلوجيا العصر ، وأخذت الدعواتُ لإحلالِ اللغةِ الأجنبية محلها().

يتبين لنا أن العولمة ، كما يقول محمود أمين : " أخذتِ العولمةُ السائدة تفضي بالضرورة إلى سيادة لغة من لغات هذه الدول المُهيمنة في العلاقات التِّجارية والاقتصادية ، وما يستتبع ذلك من سيادة ثقافتها ، وقيمها الخاصَّة ، إنَّ معنى ذلك هو تهميش اللغات ، والثقافات القومية ، واحتواؤها "()

إذ تسعى العولمة إلى السيطرة على اللغة العربية ، لكونها لغةً أجنبيةً عن اللغة الإنكليزية ، ولغة دينية في آنٍ واحدٍ ، مِمَّا يعني أَنَّ المواجهةَ بين الإنكليزية والعربية في ضوء العولمة ، تعني المواجهة بين الثقافة العربية ، والثقافة الإسلامية ، الأمرُ الذي أشعلَ حربًا ثقافيةً منذُ قُرونٍ ()، ولا شكَّ في خسارة اللغة العربية في

هذه المواجهة الثقافية بسبب هيمنة اللغة الإنكليزية على الوسائل التكنولوجية والثقافية في العالم ، والأصعبُ هنا هو ما يترتب على هذه الظاهرة من تكوين الاتجاهات الإيجابية تجاه الانكليزية ، والسلبية تجاه العربية ، وما ينتج عن ذلك من طمسٍ للهوية اللغوية العربية ، والثقافة الإسلامية () ، وبالمقابل تولدَ شعورٌ زائفٌ لدى العربي نتيجة الإحساس بالهزيمة النَّفسية ، بأَنَّ التَّقدُمَ والرُّقيَّ في المجتمع لا يتحققُ إلا عن طريق اتقان اللغة الإنكليزية ().

فالعولمة استعمارٌ حديث بنمطٍ جديد ، يستهدفُ البقاء والسيطرة للأقوى بمنتجاتِهِ ومخترعاتِهِ ولغتِهِ ، فمن أساسيات العولمة نشر اللغة الواحدة ، وجعلها لغة العالَم والعلم والمعرفة والتجارة والإعلام ،وأعني: اللغة الانكليزية ، ومحاولة جعلها لغة العلوم والاختراعات من دون سواها ، وذلك بالقضاء على بقية اللغات ، وأوَّلُها العربية ، بإيهام أبنائها أنها سببُ التَّخَلُف والانحطاط والضعف والاستكانة ، وأنها غيرُ قادرة على احتواء افرازات العلم والمعرفة ().

المبحث الثاني : اللسانيات

بعد أَنْ وجدَ المستعمرون أَنَّ اللغةَ العربية تمتلكُ من معايير الرصانة والثبات ما يجعلُ إزاحتها عن الثقافة العربية ضربًا من المستحيل ، بسبب ارتباطها بالقرآن الكريم ، مِمَّا جعل الغربُ يسعَوْنَ إلى تسليطِ ما يُسمى ب (اللسانيات الغربية) على الثقافة العربية الإسلامية ، لغرضِ زعزعة الدراسين والباحثين بمقومات النظرية اللغوية العربية القديمة ، بمعنى آخر ، هو ضربُ اللغة العربية عن طريق الدراسين والباحثين فيها ، فظهرت الدعوةُ إلى تبني اللسانيات ، وإنزالها على النظرية اللغوية العربية .

فاللسانيات هي المنهج الغربي في دراسة لغاتهم الغربية ، بعد أَنْ كان الدرسُ اللغوي الغربي منصهرًا في البحث التأريخي للغاتهم ، ظهر دي سوسير ، ليعلن عن مشروعه اللغوي الجديد بقوله : " الهدف الحقيقي

لعلم اللغة هو أَنْ تُدرسَ اللغةَ في ذاتِها ، ومن أَجلِ ذاتِها "() ، هذا يعني أَنَّ دي سوسير حاول أَن ينتشلَ اللغةَ من براثن المنهج التاريخي الذي يهيمنُ على لغاتهم ، مِمَّا أفقدها المعايير العلمية والمنهجية ، فهو أمشاجُ أخلاطٍ متناثرة ، لا رابطَ يربطُ بينها ، وليس كما يدعي السعران ، وهو يوضحُ مقولةَ دي سوسير بأنَّه يجب أن تدرس اللغة دراسةً كما تظهر ، وكما هي ، وليس للباحث أن يغيرَ من طبيعتها ، أو يقتصرَ على جوانب مستحسنًا إيَّاها ، ويلغي جوانب أخرى استهجانًا لها ().

وقد بدأت هذه الثورة اللسانية بعد أن نُشِرَتْ (محاضرات) لدي سوسير عام (1961م) ، وقد أعلن الدارسون الغربيون بأنهُ : " شهد القرن العشرون الاتجاهات العامة لوضع الأساس لمنهجٍ علمي جديد ، وبدأ البحث العلمي ، في عملِهِ بالتنظيم المنهجي والتعميم ، مُلِحًا على أَهمية استنباطِ الخصائص غير المتحولة للظواهر ()".

فاللسانيات الغربية هي ثورةٌ قامَ بها الغربُ لإعادةِ وضعِ لغتِهِم في المسار الصحيح ، بعد عوامل التغييب التي مرَّتْ بها لغاتِهِم ، بسبب الحقب المظلمة التي مرَّ بها الغرب لقرونٍ طوال ، لا سيما أَنَّها غيرُ محفوظة في كتبٍ سماوية غير محرفة ، وانصهارها في المناهج التأريخية المتعددة .

غيرَ أَنَّ الاستعمارَ آنذاك أَدركَ بأَنَّ هذه الثورة اللسانية ، يمكنُ إسقاطُها على اللغة العربية ، لتفكيك النظرية اللغوية العربية ، عن طريق الدعوات التي نادى بها الدراسون العرب مِمَّنْ تتلمذ في الجامعات الغربية الأوربية ، إذ تبنى ما يُسمى ب(جيل الرُّواد)() من المصريين النظريات اللسانية الغربية (البنيوية والوصفية والشَّكْلانية) ، وقد تسابق الباحثون في التفاعل الكبير مع هذه الحملة اللسانية الغربية ، تقول إحدى اللسانيات : " أمَّا في العصور الحديثة ، فقد حاول اللغويون العرب اقتراح نظرةً جديدةً إلى اللغة ، وكيفية دراستها ، وذلك من خلال إعادة قراءة التراث اللغوي ، سواءً في ضوء المناهج الغربية الحديثة ، ، أو في ضوء هذا التراث نفسه "() ، وتعترف فيما بعد بأنَّ : " الدرس اللساني العربي الحديث نشأ في جَوٍّ ثقافي عام تحكُمُهُ ثنائية (الأنا / الآخر) : الأنا العربي الإسلامي ، والآخر الغربي المعاصِر ، واللسانيات العربية ...

لم تسعَ مبدئيًّا إلى محاولة التوفيق بين التراث والبحث اللغوي الغربي الحديث ؛ لأَنَّ ما هَمَّ اللسانيين كان اقتراح أنموذجٍ للدراسة اللغوية يختلفُ عَمَّا ورثناهُ عن لغويينا القدماء "().

وقد تسابق جيل الرواد في نقد النظرية اللغوية العربية القديمة ، لأجلِ إفساح المجال في تبني اللسانيات الغربية ، يقول تمام حسان : " الناسُ في مُعظَمِهِم يشكونَ داءً في النَّحو العربي لا يستطيعونَ تشخيصَهُ ، فإذا أرادوا تشخيصَ هذا الدَّاءَ انصرفوا دون قصدٍ إلى سَرْدِ أَغراضِهِ ، فتكلموا في جزئيات النَّحو ، لا في صُلْبِ المنهج "() ، يعللُ تمام حسان هذا الداء الجمود النظرية اللغوية العربية بعد سيبويه ، وذلك للاعتقاد السائد بأَنَّ المُتقدمينَ لم يبقوا للمتأخرين شيئًا يمكنُ أن يزيدوا عليهِ ، وقداسة اللغة العربية عند المتأخرينَ كونها لغة القرآن الكريم ().

ويزادُ النقدُ عند عبد الرحمن أيوب بأَنَّ الشَّكْوى قد بلغتْ : " مدى أصبح من غير المُمْكِن أن يتجاهل ، وكثُرَ حديثُ النَّاسِ عن الحاجة إلى نحوٍ جديدٍ "() ، بل إنَّ : " هذه المحاولةُ تمهيد ضروري لثورةٍ عقلية لا بُدَّ من نضوجِها قبل أَنْ يتفتحَ ذهن الجيل الجديد إلى البحث اللغوي الموضوعي "() ، بل يتهم تمام حسان بأن النظرية اللغوية العربية هي خليطٌ من فلسفة آرسطو : " لم يستطعِ النُّحاةُ العرب أَنْ يتخلصُوا من قَبضةِ آرسطو السِّحْرِيَّة ، ولا من نفوذِ منطقه االقياسي "() ، بل يتحاملُ عبد الرحمن أيوب في اتهام سيبويه بأَنَّهُ أَخذَ أصولَ هذا العلم من الهنود الذين كانوا يعيشونَ في البصرة إذ عاش سيبويه نفسُهُ هناك ، وأَنَّ عملَهُ هذا لا يُمكنُ أَنْ يكونَ من نتاج البيئة العربية () ، بل يتجاهل كمال بشر أَنَّ النظرية اللغوية العربية بُنيتْ جسدًا لغويًّا واحِدًا ، إذ يزعم أن النحاة الأوائل لم يتناولوا اللغة على أَنَّها بناءٌ متكامل ، ذو جوانب ، وأركان مرتبط بعضُها ببعض ارتباطًا وثيقًا ، فعزلوا المستويات اللغوية (الصوت ، والصرف ، والنحو ، والدلالة) بعضها عن بعض ، ودرسوا كلَّ مستوى من هذه المستويات ، كما لو كان كلُّ مستوى مستقلًا بنفسِهِ ، وليس ركْنًا مهمًا في التركيب اللغوي (). ويمكنُ إجمال هذه الانتقادات التي وجهها المتبنون للسانيات الغربية ، كما يأتي :

- التأثرُ بالمنطق الأرسطي ، والفلسفة الإغريقية .
- طغيانُ المعيارية ، واعتماد التأويل والحدس والتخمين .
- عدمُ التفريق بين المنهج العلمي والمنهج التعليمي .
- فقدانُ وحدة المنهج ، لافتقار الدرس اللغوي العربي القديم لنظرية عامة صالحة للتطبيق على جوانب الدرس في اللغة ().

المبحث الثالث : النظرية اللغوية العربية.

تشير الدلائل التأريخية إلى أن اللغة العربية عاشت قرونًا من الازدهار والنَّماء لم تشهدهُ لغة غيرها على مدى التَّأريخ ، استطاعت أن تستوعبَ الحضارات وعلومها مِمَّا أَهَّلَها ؛ لأَنْ تكونَ في سنام الصَّدارةِ بين لغات العالم أجمع . غيرَ أَنَّ عواملَ الضَّعْف والهَرَم باتتْ تنخرُ بمخالبها الحادَّة روحَ هذه اللغة بسبب ضعفِ الأمة الإسلامية ، عزَّزَهُ انهزاميةٌ سكنت دواخلنا ، فأضحى العديد من الأعداء والحاقدينَ يتخذونَ العديدَ من الذّرائعَ حول جدوى عدم أهلية لغتنا العربية ؛ لأَنْ تكونَ مِثالًا يُحتَذى بين اللغات() .

وبدءًا لا بدَّ من تحديدٍ لمفهوم (النَّظرية) ، فالجذرُ الأساس للفظة النَّظرية ، هو الفعل (نظر) ، جاء في اللسان : " إذا قُلْتَ: نَظَرْتُ إليه لَمْ يَكُنْ إلا بِالْعَيْنِ، وإذا قُلْتَ نَظَرْتُ فِي الأَمر: احْتَمَلَ أَن يَكُونَ تَفَكُّراً فِيهِ ، وَتَدَبُّرًا بِالْقَلْبِ "()، واصطلاحًا ، قال فيها الجرجاني (380هـ) : " النظري: هو الذي يتوقف حصولُهُ على نظرٍ ، وكسبٍ، كتصور النَّفس والعقل، وكالتصديق بأَنَّ العالمَ حادثٌ "()، وحدَّها محمد عبد العزيز عبد الدايم : " توصفُ في حقيقة الأمر الفروض التي تقدمُ لبيان النِّظام الموجود في ظاهرةٍ ما ، أَو لوصفِهِ ، أو تفسيرِهِ بالنَّظَرِيَّة ، فالنَّظَرِيَّةُ إذن هي تلك الفروضُ الذِّهنيَّة ، أو العقلية التي يُقَدِمُها العلماءُ في استنباطِهِم

للأَنظِمَةِ التي يدرُسُونَها "()، هذا يعني أنَّ النظرية اللغوية تقوم على ثلاثة معايير هي :

- الفروض الذهنية والعقلية ، في اجتهاد فكري في الاستنباط .
- استنباط الأنظمة اللغوية .
- الاعتماد على تفسير الظواهر ().

فالبحثَ المعرفي التحفيري في بُؤَرِ النظرية النحوية العربية يتطلبُ الاعتقادَ الجازِمَ بأنّ سيبويه في كتابه صنعَ نظرية نحوية متكاملة، تفوقُ في مفاهيمها، ومصطلحاتِها، ومضمونها، جميع النظريات اللغوية الحديثة والمعاصرة من حيث التقنين التقعيديّ القائمُ على أسسٍ علمية معرفية، يزاوجُ بين المعايير اللغوية، والمعايير الخارجية للتراكيب من ظروفٍ، ومقاماتٍ، وملابساتٍ اجتماعية وإنسانية ، وعقائدية ونفسية، وهذا يؤكدُ حقيقة لا تقبلُ الشكَ أنّ سيبويه صنعَ نظريةً لتكونَ (قرآنَ النحو)() في تمثيلِ العربي تمثيلًا متكاملًا في فكره وعقله ومعتقداته وثقافاته، فكان الكتابُ منهجًا خالدًا، وميراثًا ناطقًا، وفكرًا مُلهِمًا، وكلما تقادمَ الزمانُ ثبتَ أن الكتابَ معينٌ لا ينضب .

وأجزمُ بأنّ سيبويه لم يكن هَدفُهُ : " معالجةَ الأخطاء اللحنية فحسب، أو تقعيدَ شكليات الكلام وهيئاته المختلفة, أو الوقوفَ عند حدود المُعطى الإعرابي في مظاهره الكيفية التي ملأتْ كتبَ المتأخرين، بل كان هدفُهُ الثاوي وراءَ الطروحات وشكل التصنيف ، وقضايا الدلالة المقترحة هو صياغة أصول المنطق العربي ، وأبجديات التفكير داخل نظام المعرفة الإسلامي" () .

وجانبَ الصوابَ مَنْ يرى أنّ الأمرَ " لم يكنْ سيبويه يطلبُ من عملِهِ اللغوي جمعًا وتنظيمًا وتحليلًا سوى أنْ يعرفَ قواعدَ العربية، ويتمرنَ على استعمالها لئلا يلحنَ في الكلامِ بها... وكل مَنْ عرفَ قصةَ سيبويه مع حماد ... انكشف له مرةً أخرى أن الدرسَ اللغوي العربي القديم نشأ في إطار علم اللسان، وأنَّ هدفَ هذا العلمَ محصورٌ في وصف قواعد العربية الموزعة بانتظامٍ على مستوياتها " ().

إذ شكل (الكتاب) حين ظهورِهِ نقلةً نوعيةً في تأريخ الفكر اللغوي العربي بإخضاعِهِ السُلوك اللساني العادي إلى التقنين والتجريد النظريين ، فقد تمت الصياغة النظرية لكلِّ مظاهر التواصل اليومي ().

فدراسة النظرية النحوية لا يمكن أن تُستوعبَ استيعابًا صحيحًا إلا بربطِ النحو العربي ببنية الذهنية الإسلامية، وبعقلانية العربية، والعقلانية المقصودة هنا، متصلة بإرادات العرب، لا سِيَّما الظروفُ الاجتماعيةُ والثقافيةُ العامة التي رافقتْ نشأتُ الدراسات اللغوية العربية()

فهذا يعني أنَّ النَّظرَ في نظريةِ النَّحو العربي : " يحتاجُ إلى مَزيدٍ من التحديد والتوضيح والضبط؛ لأنه لا يجوزُ أنْ نُجازفَ بإصدارِ الأحكامِ على نَظر القدماءِ في الواقع اللغوي دون التمكن من الإطارِ العقدي والمنهجي الذي ظهر فيه هذا النحو ؛ لأنَّ نشوءَ أي بحثٍ يجبُ أنْ يَتمَ في إطارِ مشروعٍ ثَقافي علمي متكامل "() .

ويمكن القول أنَّ : " النَّحو العربي كان طبيعيًّا ومنتجًا واقعيًّا ، لكن باعتباره العلمي الذي يُجردُ المعطيات اللغوية ، ويصوغها داخل قوالب ، وقواعد صورية تقنن الاستعمال الكلامي ، فهو خطابٌ صناعي بمفهومِهِ التُّراثي ، ولغته الصِّناعية في بعدها العلمي – التقني ، ويمكن للخاصية الصناعية أن تبرزَ من خلال اللغة العاملية "().

تفكيك النظرية اللغوية العربية في فكرِ اللسانيين العرب :

تشعبتِ الدراسات اللسانية في ميدان البحث في الجامعات العربية ، وقد تصاعدتِ الأصواتُ بأَنَّ اللسانيات هي المنقذُ في دراسة النظرية اللغوية العربية بمستوياتها كافة الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية ، حتى أخذَ بعضُ الأساتيذ منهج الرفض للدراسة في تراث النظرية اللغوية العربية القديمة ، معللينَ بأَنَّ النظرية

القديمة قد نضجت ، واحترقتْ ، ولم يبقَ فيها ما يتطلب البحث ، والدراسة ، بل أخذ الدارسون والباحثون يتفاخرون بكونِهِم يكتبون في اللسانيات .

فالنظرية اللغوية العربية كانت تبني نحوَ لُغتِها الخاصَّة ، فهي إنما كانت تفعل ذلك بغيةَ حفاظِها على النَّص القرآني ، أما اللسانيات الغربية ، فإنها تسعى إلى بناءِ نحوٍ كُلِّي يصفُ ، ويُفسرُ خصائصَ اللغات الطبيعية بصورةٍ أَعَم ()،

أفضلية اللغات :

يرفضُ اللسانيون القول بتفاضل اللغات ، يقول عبدالرحمن بودرع : " وتجد الناس في هذا الموضوع منقسمين إلى فريقين : فريقٌ يقولُ بتساوي اللغات ، ويتمسك بما يُقَرِرُهُ اللسانيون المحدثون من نفي التفاضل بين اللغات ، وفريقٌ يميلُ إلى إسناد الفضل المَزِيَّة للغتِهِ دون سائر اللغات "() ، بعضٌ يرى أنَّ التفاضلَ يرجعُ إلى أسبابٍ خارجةٍ عن اللغة ، كتقدم المجتمع ، واستناد اللغة إلى خلفية حضارية وثقافية واسعة يتسعُ لها معجم اللغة وبنياتُها ، فمبدأ التفاضل بين اللغات من هذه الجهة ، وليس في نظمِها وقواعدها() ، ويعلل اللسانيون رفض التفاضل : " الحقيقةُ أن النظريات اللسانية الحديثة تُسَوِّي بين اللغات ، ولا تفاضل بينها ؛ لأنَّ اللغات أدواتٌ للتواصلِ والتداول والتعبير عن الحاجيات "().

غيرَ أَنَّ النظرة التدقيقية تبينُ أن اللغة العربية أفضلُ اللغات لأسبابٍ داخلية ، وخارجية ، فأمَّا الداخلية ، فيرجع إلى رصانة النَّظام الداخلي للتراكيب ، وما يتسم في التقعيد من ضبطٍ علمي ، واطرادٍ قويم ، من غيرِ تصادُمٍ ، أو لبسٍ ، وما يدور حول القواعد من نظرية العامل والعمل ، وقضية الأصل والفرع ، وهذا السَّبكُ يندرُ في لغات العالم أجمع .

أما الأسباب الخارجية ، فالنصُّ القرآني هو الذي أَعطى اللغة العربية منزلةً تفوقُ لغات العالم أجمع ، فلما نزل القرآن الكريم ، " أضاف إلى العربية ما يكن فيها من غنى في المُعْجَم ، وقوة في التعبير ، وتوسُّع في

الدَّلالات المجازية والاستعارية ، واشتقاق ، وتوليد في الصِّيغ الصَّرْفية ، وتعريب للمولَّد والدَّخيل ... عندما نزل القرآن الكريمُ بلغة العرب فجَّرَ ما بِداخِلها من طاقاتٍ ، وبثَّ فيها كُلَّ القُدرات والإمكانيات التي تُمَكِّنُها من استيعاب الخطاب القرآني ، ولو لم ينزِل بها لمَّا تفجرت ينابيعها ، ولما كُتِبَ لها البقاءُ والاستمرار "().

إعادة قراءة التراث :

ليس هناك مانعٌ من إعادةِ قراءة التراث اللغوي العربي القديم قراءةً جديدة ، للكشف عن تلك الأسرار التي صاحبتْ تأسيس النظرية اللغوية العبية القديمة ، يقول عبد السلام المسدي : " إنَّ مقولةَ التراث عند عامة المفكرين العرب تستند إلى مبدأ ثقافي منه تستقي شرعيتها وصلابتها في التأثير والتجاوز ، وهي بهذا الاعتبار لحظة البدء في خلق الفكر العربي المعاصر والمُتَمَيِّز ، فلا غرابةَ أنْ تُعدُّ قراءة التراث تأسيسًا للمستقبل على أصولِ الماضي بما يسمح ببعث الجديد عبر إحياء المُكتسب "() ، ولا يعني إعادة قراءة التراث : " هو إسقاط المذاهب والنَّظَرِيات الحديثة على المذاهب العربية القديمة ... وكلٌّ يعرف أَنَّ لِكُلِّ عصرٍ نظرةً خاصَّةً ، وتصورًا خاصًّا للظواهر ، وكيفية خاصَّة للكشفِ عن أسرارِها ، والمنظور العربي يتمَيَّز بلا شكٍّ في العلوم الإنسانية عن المنظور الغربي الحديث "() .

فمن حقِّنا نحن أبناء العربية أن نعتزَّ ونفتخرَ به ، كونُهُ تراكُمًا إيجابيًّا لِحِقبٍ مختلفة من تأريخ الأمة العربية ، وإنَّ التَّشَبُثَ بهذا التراث تشبث بالهُوية ، والحفاظ عليها ، وليس في هذا عيبٌ ، أو خطأ ().

نجد هنا أن بعضَ الدارسين المعاصرين يستجدون من اللسانيين أن يرجعوا للتراث العربي من أجل كشف ما به من رصانة ، وذخيرة لغوية تصلحُ للدراسة ، فالمَسدي يرى : " إنَّ من الأسباب التي دَعَتْ إلى الغفلة عن حظ العرب من ثراء التفكير اللغوي الإنساني ورود نظريتهم اللغوية مبثوثةً في خبايا تراثهم الحضاري بمختلف أصنافِهِ وأضرب مشارِبِهِ ... أما النتيجة التي آلَ إليها (النسيان) تراث العرب في اللغويات العامة "().

ومن ثمَّ أخذ الدارسون يحاولون عرضَ التراث اللغوي العربي القديم على اللسانيات الحديثة ، للاستدلال على

وجود الأسس اللسانية في التراث اللغوي ، وهي رؤية معكوسة ، أن نحاكِمَ القديم بالجديد ، فهذا صبحي الصالح يقارن بين مصطلح (أصول الألسنية) ، و(أصول النحو) فيقول : " إنَّ عبارة (أصول الألسنية) هنا أوسعُ مجالًا ، وأَدَقُّ دلالةً من عبارة (أصول النحو) التي تحدث عنها نحويٌّ كبيرٌ كأبي البركات بن الأنباري (577هـ) ، وجعلها بمثابة المناهج الأساسية في النَّحُو ، وجعل معرفتها علمًا قائمًا بذاتِهِ "() .

وهذا عجبٌ أن يُقارنَ بين مصطلحين بينهما بونٌ شاسعٌ ، فأصول النحو أُطُرٌ منهجية للنظرية النحوية العربية ، التي تأسستْ عليها النظرية النحوية العربية من السماع ، والقياس ، والإجماع ، واستصحاب الحال ، بينما مصطلح (أصول الألسنية) هو مصطلحٌ ليس بجديدٍ ، ولا يعبرُ إلَّا عن مصطلح (اللغة) ، فالبعدُ بينهما شاسعٌ جدًّا .

بل يزدادُ الأمرُ عجبًا إذ نجدُ عنوانًا وسمه صاحبه : (أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث) ، يبينُ فيه أَنَّ للعرب : " فضلُ السَّبق في كثيرٍ من القضايا والمباحث اللغوية التي توصلتْ إليها مناهج البحث اللغوي الحديث سواءٌ أكانت هذه المناهج الوصفية البنيوية ...أم كانت هذه المناهج التوليدية التحويلية "().

وترى معالي هاشم أنَّ تجربة تمام حسان تُعَدُّ كشفًا في الربط بين النظرية النحوية العربية واللسانيات الغربية ، إذ تُمثل آراؤهُ اللسانية صورةً واضحةَ المعالم ، لالتقاء الفكر اللساني العربي الأصيل بالنظرية اللسانية الغربية الحديثة في محاولة توفيقية بين منهجي النحاة العرب القدماء ، واللسانيين المعاصرين البنيويين منهم بشكلٍ خاص ، قصد التأسيس لنظرية نحوية عربية حديثة ().

كلُّ هذه التفريعات للدارسين المحدثين هي من آثار العولمة ، فقد قامت اللسانيات بتفكيك النظرية اللغوية العربية ، فقد دعا اللسانيون إلى دعوات متعددة ، وهذه المعايير التفكيكية هي :

- إلغاء الإعراب .

- إلغاء العامل .
- إلغاء التقدير والحذف من النظر اللغوي .
- اعتماد الجانب الوصفي في دراسة اللغة .
- الدعوة إلى استبدال الكتابة العربية بالحروف الأجنبية .
- الدعوة إلى العاميات في الاستعمال المطلق .
- الفصل بين اللغة العربية والنَّص القرآني .

ثبت المصادر والمراجع :

- الاتجاه التوافقي بين لسانيات التراث واللسانيات المعاصرة الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أنموذجًا ، معالي هاشم أبو المعالي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كلية التربية للبنات ، 2014م.
- اتجاهات البحث اللساني ، مليكا افيتش، ترجمة : د. سعد عبد العزيز مصلوح ، المجلس الأعلى للثقافة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، مصر ، 2000م.
- اتجاهات البحث اللساني عند الفيرثيين العرب ، صلاح فرحان شتيوي ، اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كلية العلوم الإسلامية ، 2023م.
- الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي, د. فؤاد بو علي, عالم الكتب الحديث, الأردن, ط1/ 2011م.
- أصول الألسنية عند النحاة العرب ، د . صبحي الصالح .
- أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث (في مجالي : مفهوم اللغة والدراسات النحوية ، الدكتور حسام البهنساوي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، 1994م.
- تجليات العولمة في اللغة العربية ، بحث : د. ناهدة أحمد الكسواني ، مجلة جامعة القدس للأبحاث والدراسات – العدد التاسع والعشرون.
- التعريفات, الشريف الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني, وضع حواشيه : محمد باسل عيون السود, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1/ 2000م.
- التفكير اللغوي بين القديم والجديد ، د. كمال بشر ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، 2005م.
- التفكير اللغوي عند العرب مصادرُهُ ومراحلُهُ ، د. عبد الرحمن أيوب ، مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، مصر ، جزء 24.
- دراسات نقدية في النحو العربي ، الدكتور عبد الرحمن أيوب ، مؤسسة الصباح ، الكويت ، 1957م.
- السَّماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة ، الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، ط2 ، 2012م.
- العرب والعولمة ،العولمة والهوية الثقافية ، د. محمد عابد الجابري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط 2، 1997م.
- علم اللغة العام مقدمة للقارئ العربي ، محمود السعران ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1966م.